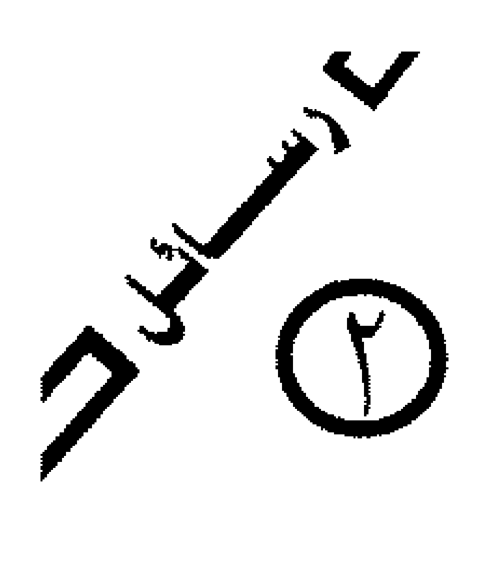




الكوثر

الإسلام والحرية والعلمانية

بقلم

جمال البنا

دار الفكر الإسلامي
١٩٥ شارع الجيش ١١٢٧١
القاهرة : ت فاكس: ٥٩٣٦٤٩٤

الإسلام والحرية والعلمانية

تتردد هذه المفردات كثيرا فى معظم الكتابات الحديثة عن الإســـلام دون أن تصل إلى تحديد دقيق، ويغلب دائما ان تأخذ الشكل الأكاديمي الذى يغرق القارئ فى نصوص متعارضة واستشهادات متفاوتة، ونرجو أن نقدم فى هذا البحث إضافة تأخذ اسلوبا جديدا وتنتهى إلى نتائج جديدة أيضا قد تخالف المأثور التقليدى، ولكنها تتفق تماما مع نص القرآن الكريم وروحه وما ثبت عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

الحرية

الانطباع الذى تصدر عنه معظم الكتابات التقليدية عن الحرية والإسلام – ان الإسلام لما كان بالدرجة الأولى دينا فمن الطبيعى أن يختلف فى أهدافه ووسائله عن ما تتجه إليه وتنهجه الحرية والعلمانية. وشواهد الحال تدعم هذا الانطباع. فمعظم المفكرين الإسلاميين يضيقون بالحرية والعلمانية، وأكثرهم تحررا يقف عند «الثوابت»، فى حين أنه لا معنى لحرية الفكر إذا حرمنا عليها مناقشة الثوابت إذ أن أهم ما يفترض أن تتجه إليه الحرية هو هذه

الثوابت بالذات التي وإن كانت تقوم بالحفاظ والاستقرار للمجتمع، وتمسكه من الانزلاق أو التحلل، الا أن عدم مناقشتها يجعلها تتجمد، بل وتتوثن وتأخذ قداسة الوثن المعبود. هذا كله بفرض أن الثوابت هي دائما صالحة ولازمة، ولكنها لا تكون كذلك دائما. وقد جلى القرآن صيحة عجب المشركين من الرسول الذي يريد أن يجعل الآلهة إلاها واحدا «إن هذا لشيء عجاب*»، فضلا عن أن الثوابت تعبير مطاط فيمكن أن تنتقل من الله إلى الرسول، ومن الرسول إلى الصحابة، ومن الصحابة إلى السلف الصالح، كما هي الحال في فكر الكثيرين، وتجربة البشرية أنه ما أن يسمح المشرع باستثناء في الحريات، ولو كثقب إبرة، حتى يصبح ثغرة تتسع للجمل وما حمل.

وحتى عندما تسمح حرية الفكر بالغلو، فإن الغلو، وإن كان في مجموعه سيئا، إلا أنه قد يصل إلى استكشاف ما لا يستكشفه النقاش المألوف. وقد كان الخوارج من أكثر الناس غلوا في بعض

---

* فهؤلاء المشركون كانوا يرون أن تعدد الآلهة من الثوابت المقررة وإن التوحيد الذي دعا إليه الرسول أمر يثير العجب.

جوانب عقيدتهم، ومع هذا فقد كانوا هم الذين استكشفوا فساد المبدأ الذى أقره الفقهاء جميعا «الأئمة من قريش» وقالوا ان الإمام هو الأصلح وذهب بعضهم إلى عدم ضرورة الإمامة أصلا، إذا استطاع الناس أن يصلحوا أمورهم فى ما بينهم، وهو ما اعتبر أقصى درجات الغلو. ومع هذا فانه كان ولايزال - أمنية كثير من المفكرين.

وقد كشف شاعرنا الكبير شوقى ببداهة الفنان بعض الجوانب المشرقة فى الغلو فى مرثيته الرائعة لأمين الرافعى الذى اتهمه أعداؤه بالغلو فى الوطنية:

قيل غال فى الرأى قلت هبوه
قد يكون الغلو رأيا أصيلا

وكم استنهض الشيوخ وأذكى
فى الشباب الطماح والتأميلا

ولكن شيئا من هذا لا يمكن أن يقف أمام السد المصمت الذى يقيمه المفكرون الإسلاميون ما بين الثوابت والحرية، والذى يقضون به على أعظم رسالة للحرية ألا وهى الحيلولة دون توثين الثوابت

حتى عندما نقول لهم إن هذا التوثين يصبح مع الزمن شركا . وما حركة ابن تيمية إلا مقاومة لتوثين ما توهمه معاصروه ثوابت، حتى عندما نقول لهم هذا فإنهم لا يغيرون موقفهم الذى أصبح نوعا من «المزاج» وجزءا من الشخصية.

ونحن نؤمن إيمانا تاما بأن الإسلام الذى يعتد به، أى اسلام القرآن والصحيح عن الرسول، يأخذ بمبدأ حرية الاعتقاد والفكر على اطلاقها . وشاهدنا ومستندنا فى هذه الدعوى أمران، الأول: **نصوص الآيات بالقرآن الكريم والمواقف التي وقفها الرسول**، والثاني: **طبيعة الأشياء التي يأخذ بها القرآن ويطلق عليها «سنة الله».**

ولا يعنينا بعد هذا فى شىء ما تحفل به كتب الفقه وما تتضمنه من أحكام عن المرتد ومن جحد معلوما من الدين بالضرورة «فمن قصد البحر استقل السواقيا».

اما آيات حرية الفكر والاعتقاد فى الإسلام فقد تبلغ مئة آية كلها تقرر أن من آمن فلنفسه، ومن كفر فعليها ، ومن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر وأنه لا إكراه في الدين. وان الرسول، وهو الداعي

إلى الإسلام ليس عليه إلا البلاغ، ولكنه ليس حفيظا ولا مسيطرا ولا جبارا ولا حتى وكيلا عن الناس، وانه لا يهدى من يحب، وإنما يهدى الله من يشاء «ليس عليك هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء»، وان ليس للرسول أن يبخع نفسه أمام من لم يؤمنوا «ولو شاء الله لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين».

أما الاختلاف فحكمه إلى الله «وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله عليه توكلت واليه أنيب».

كما يلفت النظر أن القرآن تحدث عن المرتدين عدة مرات بدون أن يوجب عليهم عقوبة دنيوية، وإنما جعل جزاءهم على الله يوم القيامة.

أما الحرب التى أطلق عليها الردة فليست إلا تمردا عسكريا من بعض قبائل العرب التى ضاقت بالحكم المركزى، وبدفع الزكاة وتولية أبى بكر، ولكنهم كانوا يؤمنون بالله والرسول ويؤدون الصلوات، فلم تكن حرب ردة وإنما كانت ردا (لأنهم هم الذين بدأوا الحرب قبل أن يتحرك أبو بكر) على تمرد عسكرى.

ولم تظهر حكاية المرتد، واستتابته إلا في مرحلة لاحقة وعلى يدى الفقهاء الذين أصدروا أحكامهم من منطلق «حكم الصنعة» وبدعوى حماية العقيدة وبتأثير النظم السياسية الطاغية إلخ.

يدعم هذه الحقيقة موقف الرسول من المنافقين في المدينة الذين قال عنهم القرآن إنهم «آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا»، «ولقد قالوا كلمة الكفر بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا»، ومع هذا فلم يوقع عليهم الرسول عقوبة من أى نوع وتغاضى عن كفرهم، أما ما يوردونه من أحاديث تتضمن عقوبة على الردة، فانها اذا صحت تقرن الردة بالخروج عن الجماعة، مما كان يعني وقتئذ الانحياز إلى المشركين ومحاربة المسلمين(١).

على أن موقف على بن أبى طالب من الخوارج الذين أخسروه نصر صفين بعد ان كان قاب قوسين منه، وانعزلوا عنه وسيوفهم على عواتقهم، ثم كفّروه! بعد كل هذا لم يشن عليهم الإمام على الحرب، بل تركهم وعرض عليهم تسويتهم ببقية المسلمين حتى

---

(١) لقد عالجت هذا الموضوع ببعض التفصيل في رسالة «حرية الاعتقاد في الإسلام» (١٩٧٧) وكتاب «كلا ثم كلا، كلا لفقهاء التقليد وكلا لأدعياء التنوير».

بدءوا العدوان فلم يكن مناص من ردّه، وهذا المثال مما يندر وجوده في أشد النظم تحررا وديمقراطية.

قلنا في مستهل الفقرة إن سندنا في أخذ الإسلام بحرية الفكر هو النصوص القرآنية ثم طبيعة الأشياء التي يأخذ بها القرآن ويطلق عليها «سنة الله»، وقد أشرنا إلى ما جاء في القرآن من نصوص ويبقى أن نعالج نقطة «طبيعة الأشياء».

وهذه قضية لا تتطلب عناء، لأنها تكاد تكون من البديهيات. فالأديان مادامت تقوم على الإيمان القلبي والاقتناع العقلي، فإنها تفترض مقدما وجود الحرية، فلا إيمان دون اقتناع، ولا اقتناع دون تفكير، ولا تفكير دون حرية، ولهذا، حق للقرآن أن يستنكر... «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»، وصرح بالمبدأ... «لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغي»، واعتبر الرسول أن «الأعمال بالنيات» كما قرر الفقهاء أن «النية» شرط لسلامة الشعائر وهذه كلها – أعني النية، والإيمان تتنافى مع وجود أي صورة من صور الضغط والإكراه ومن ثم تفترض وجود الحرية.

وفي كتابنا الموجز «لست عليهم بمسيطر: قضية الحرية في

الإسلام[1]، قلنا أن الحرية فى المجتمع الأوروبى تنبع من الإنسان وأنها فى الإسلام تنبع من الحق، ولكن هناك حرية واحدة ليس للحق وصاية عليها - لأنها هى الطريق إلى التعرف على الحق «ومن ثم فلا يكون له وصاية عليها، هى حرية الفكر».

ولم نجد حرجا من أن نفرد فصلا تحت عنوان «ضمانات الحرية فى مواجهة الحق» لأن تجربة البشرية كانت دائما أن يحيف الحكام والسلطان على الحرية بدعوى الحق ومن هنا فإن الإسلام فى الوقت الذى قرر فيه حرية الاعتقاد وفتح بابها على مصراعيه، فإنه أوجد ضمانات تحول دون الافتيات عليها بدعوى هذه الحقوق.

ويستشعر المفكر المسلم أعظم الأسى عندما يجد أن الآيات القرآنية، والمواقف النبوية، وطبيعة الأشياء كلها تدعو إلى حرية الفكر، ومع هذا فإن الإحساس بالحرية فى فكر الفقهاء والعلماء المسلمين ضحل، ويكاد يكون منعدما، يستوى فى هذا المحدثين جنبا إلى جنب القدماء. فبقدر ما يتحدثون عن الحرية، بقدر ما

---

(١) لست عليهم بمسيطر: قضية الحرية فى الإسلام - جمال البنا - دار الفكر الإسلامى ص ٥٠.

يتضح أنهم إنما يعنون بها حريتهم وليس حرية الآخرين.

وفي القضية التي أثيرت أخيرا حول فكر الدكتور نصر أبو زيد وما أورده الدكتور محمد عمارة عن تفسيره للإسلام تفسيرا ماركسيا ورد الدكتور محمود أمين العالم على كلام الدكتور عمارة الذي نشره في مجلة الأهالي القاهرية (العدد ٧٨٩- ٣٠/١٠/٩٦)، لفت انتباهنا ان الثلاثة لم يدافعوا عن حرية الفكر لاستغراقهم الأكاديمي الفقهي، وهيمنة الانتماءات ولأن الإسلاميين منهم والماركسيين على سواء ليسوا من أنصار حرية الفكر، فالفقهاء هم الذين وضعوا صيغة «من جحد معلوما من الدين بالضرورة» والمعتزلة وهم في ما يقال أحرار الفكر جلدوا أحمد بن حنبل حتى كاد يموت. أما ماركس وإنجلز فقد آمنا بالديكتاتورية حتى وإن كانت ديكتاتورية البلوريتاريا المزعومة. وجاء لينين الذي يعد المجرم رقم (١) في حق الحرية في العصر الحديث فدمرها عمليا، وحاول ذلك نظريا، وأقام بيده أكبر جهاز للمخابرات، وهدم قاعدة «كرونستاد» على البحارة الذين كانوا أول من أيد ثورته، وأخرس صوت المعارضة العمالية واستلحق النقابات، وأصدر في المؤتمر

العاشر للحزب الشيوعي مارس ١٩٢١ قرارين حرم فيهما أي منفذ للحرية داخل الحزب وأطلق يد السكرتير العام ستالين ليواصل ما بدأه بصورة فجة، ولو ولي تروتسكي لما اختلف الأمر، فهو جزار البلشفية الذي «عسكر» النقابات ووضع مبدأ اتخاذ الرهائن... الخ.

هذا الماضي المظلم لفكر أئمة الكاتبيْن - عمارة والعالم - جعل حديثهما بالنسبة للحرية مجمجما، تلفه طبقات من الضباب والعزوف، بل إن نصر أبو زيد نفسه لم يتحدث عن الحرية لأنه يقف ما بين هذين.

ولولا هذا لافترض أن يكون صوتهم عاليا صريحا، وان يطالبوا بحرية الفكر إلى آخر مدى - حرية الإيمان وحرية الكفر. وانه اذا أنكر كُاتب وجود الله أو غيره من الثوابت فلا يجوز لأحد مصادرة كتابه، ولا الحكم عليه في المحاكم، وإنما يرد عليه كلمة بكلمة، وبرهانا ببرهان. والدكتور نصر أبو زيد ليس في حاجة لأن يعلن إسلامه - فمن حقه ان يقول ما ينتهي إليه فكره حتى لو وصل به إلى مخالفة الثوابت العظمى والكفر بها. ان القرآن الكريم يعطيه

هذا الحق، «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر». فمنذا من الكتاب - ماركسيين أو إسلاميين - يقول هذا؟

***

العلمانية

هذا هو موقف الإسلام من الحرية، وبوجه خاص حرية الفكر والاعتقاد[1]. فما موقفه من العلمانية؟

تعود الفكرة الضبابية أو الضالة عن الإسلام والعلمانية إلى لَبْس بالنسبة للمرجعية الإسلامية يصطحب به لَبْس آخر ينشأ عن الحكم على الإسلام بما حدث للمسيحية.

اللَّبْس الخاص بالمرجعية الإسلامية

نشأ هذا اللبس من اعتبار الأحكام التى أسسها الفقهاء والأئمة منذ ظهور المذاهب فى القرن الثالث الهجرى ومن ظهر بعدهم من المجددين مثل ابن تيمية وابن حزم فى القرن الثامن

---

(١) نوجه الانظار إلى اننا لم نسهب فى الحديث عن الحرية لأننا بصدد وضع رسالة خاصة ومستقلة عن موضوع حرية الفكر والاعتقاد تظهر قريبا.

والشوكانى فى القرن الحادى عشر ومحمد عبده فى القرن الرابع عشر الهجرى حتى زعماء الدعوات الإسلامية المعاصرة (المودودى - حسن البنا - سيد قطب) هى الآراء التى تمثل وجهة نظر الإسلام فى العلمانية وفى غيرها.

وهذا لبس مفهوم، فأساتذة الجامعات الدينية يرون فى هؤلاء أساتذتهم العظام كما أن أساتذة الجامعات المدنية والمستشرقين يرون فى هؤلاء الأئمة الممثلين الطبيعيين للفكر الإسلامى. ومن هنا اتفق الجميع على اعتبارهم المرجعية المعتمدة والمقررة للتعبير عن الإسلام.

والحقيقة أن هؤلاء جميعا حتى المتقدمين منهم كأئمة المذاهب الأربعة خضعوا لمناخ سياسى واجتماعى وثقافى معين وتأثروا تأثرا عميقا ببيئاتهم وسمح تأخر تدوين السنة لمائة عام بعد وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام) باقتحام أعداد هائلة - بمئات الألوف - من الأحاديث المكذوبة، كما أن اسلوب القرآن القائم على المجاز الفنى والنظم الموسيقى واللمسة السيكلوجية أفسح المجال للتأويل والتفسير ودخول إسرائيليات عديدة فى كتب التفسير

المعتمدة وبقدر ما كان الزمن يبعد عن العهد النبوى ويوغل فى ظلمات الحكم الفردى وسيادة الجهالة وهيمنة الفرس والترك على الخلافة وتمزق الحكم الإسلامى... بقدر ما كانت هذه المؤثرات تنعكس على كتابات وأحكام الفقهاء، لأنه من العسير جدا على الكاتب أن يخرج عن أطر عصره ومستوى فهم هذا العصر، وليس أدل على هذا من أنه عندما تكاثفت الظلمات قرر الفقهاء أنفسهم اغلاق باب الاجتهاد الذى يصور العجز عن إعمال العقل والتسليم بما ذهب إليه الأئمة والأسلاف، أى الافلاس الفكرى كلية.

وبصرف النظر عما فى هذا الكلام من حقيقة، **فإن الأمر الذى لا نزاع فيه والذى يرقى إلى مستوى البداته أن ما يمثل الإسلام حقا هو كتاب الإسلام الأصيل - أى القرآن - وكان المفروض عندما يراد معرفة حكم الإسلام فى أمر أن يعاد إلى القرآن نفسه، وليس إلى تفسيرات المفسرين له الذين خضعوا للمؤثرات التى** أشرنا إليها وحافت على النص القرآنى، كما كان يجب أن تضبط السنة - التى تسلل إليها الوضع - بضوابط القرآن حتى لا يُسمح

للأحاديث الموضوعة أو المحرفة بإصدار أحكام مجافية أو حتى مخالفة للأصول التى أرساها القرآن.

ولكن لما كان ذلك أمرا صعبا، وفى الوقت نفسه يجاوز الأطر السلفية والأحكام التى وضعها بالفعل أئمة المذاهب، فقد آثر الكتاب الإسلاميون وتبعهم في هذا المستشرقون – أن يأخذوا أحكامهم من الأحكام الفقهية التى وضعها الفقهاء منذ ألف عام... واعتبروها حكم الإسلام.

ومن هنا نشأ اللبس الأول وأخذ ما يقال أو يكتب عن حكم الإسلام على العلمانية من الفقهاء حتى لو كان يجافي أو يخالف حكم القرآن للعوامل التى تحكمت فى الفقهاء وأشرنا إليها آنفا.

لَبْس الحكم على الإسلام بما حدث للمسيحية

يعود اللبس الثانى بالنسبة لموضوع الإسلام من العلمانية إلى تطبيق الكتاب الأوروبيين أحكامهم عن المسيحية على الإسلام، فى حين أن هناك فرقا جذريا بين الإسلام والمسيحية، أو على الأقل بين الإسلام والكنيسة المسيحية.

ان أي دارس للحضارة الأوروبية يعلم أن جذورها الحقيقية يونانية - رومانية، والحضارة اليونانية والرومانية حضارة وثنية - لا بمعنى أنها تعبد الأصنام والأوثان - ولكن بمعنى أنها تتجاهل فكرة الله بالتصور الذى نجده فى الأديان السماوية وترفض بوجه خاص ما يرتبط بها من وجود عالم آخر للحساب والثواب[1]. فهذه الفكرة لم تكن فحسب مستبعدة من الإيمان الإغريقى والرومانى، بل انها، فى الحقيقة، معارضة تماما للأساس الذى قامت عليه هاتان الحضارتان، ذلك أنهما عندما استبعدا الله، ألها الإنسان، وعبر عن ذلك أول حكماء اليونان «الإنسان مقياس الأشياء»، وهو المعنى الذى كرره كانت وهيجل بتعبيرات أخرى مثل «الإنسان غاية فى ذاته». فالحضارة الأوروبية هى السليلة الشرعية لليونان والرومان. وعندما أرادوا النهضة أخذت هذه النهضة شكل إحياء renaissance الحضارة اليونانية/ الرومانية.

---

(١) ولهذا فإن تناقض الوثنية اليونانية/ الرومانية لا يقتصر على المسيحية، لأنها تتناقض بشكل أكبر مع الديانة المصرية القديمة، والإسلام. ففى هذين نجد أعلى تركيز لفكرة «اليوم الآخر».

وكمـا تكوّن «الانسـان» المؤله فى أثينـا ، وفى رومـا ، فـانه – فى صورة الفرد المحرر – نشـأ فى محـضـن «البور» أو «البورج» فى القرن الثانى عشر والثالث عشر فى بريطانيا وفرنسا ، وهذا الفرد هو الذى حملت الحضارة الأوروبية المعاصرة شارته التى تقوم على **الحرية لا الإيمان، والتعاقد لا الالتزام، والفرد وليس الجماعة. وهكذا ظهرت البورجوازية بواجهتيها السياسية وهى الديمقراطية، والاقتصادية وهى الرأسمالية.** ومما لا يخلو من دلالة اننا لا نجـد فى التـاريخ الأوروبى – من اليونان حتى اليوم – ذكرا للرسل والأنبياء، فقد حل الفلاسفة والأدبا «والمفكرون محلهم، ووضعوا «الضـمـيـر» وغرسوا الوجدان بما أبدعوه من فنون.

وفى جميع الحالات من اقدم العصور – اليونان – حتى نهاية التاريخ، على ما ذهب إليه فوكوياما، كان الاستمتاع والربح والسيطرة هى الأهداف العظمى لهذه الحضارة، وكانت القيم الحاكمة فيها هى الحرية والقوة والنظام (أو القانون) ولم تأبه الحضارة

الأوروبية بقيم كالرحمة والخير والصفح والعدل.

فى هذه الحضارة تكون الدنيوية أو العلمانية جزءا لا يتجزأ منها، يسرى فيها مسرى الدم فى العروق، ولا يتصور شىء آخر خلافها.

ولكن هذا الشىء الآخر حدث مع دخول المسيحية بمثل وقيم تختلف عن قيم ومثل الحضارة الأوروبية الدنيوية، ومع أنها كدين لا تستهدف السيطرة أو الحكم لأن هذا يخالف طبيعتها، وقد قال المسيح «اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، ونفى أن تكون مملكته فى هذه الدنيا، ولكن الذى حدث هو انه ما إن تظهر الأديان حتى تظهر فى مرحلة لاحقة المؤسسة الدينية المحتكرة المنتفعة، وحتى يبرز الكهنة الذين يوجدون فى معبد، والسدنة الذين يحرسون كل هيكل، وجباة العشور الذين يفيدون من العقيدة التى أصبحت مذهبا والإيمان الذى تجمد فى كنيسة.

وللمؤسسة الدينية طبيعة تختلف تماما – أو حتى تتنافى – مع

طبيعة الأديان، فطبيعة المؤسسة الدينية ذاتية، وطبيعة الأديان موضوعية، وتتعرض المؤسسة الدينية لعملية من التداخل السيكولوجي توحد بين الدعوة وأشخاص الدعاة بالمؤسسة والذين يتحدثون باسم الدين. وبعد فترة يصبحون هم بأشخاصهم محل الدعوة نفسها، أو يصبحون هم والدعوة شيئا واحدا، وأخيرا، هم الدعوة. وبهذا يطرحون على الدعوة كل ما في النفس البشرية من طموح وقصور.

ويتكرر هذا بالكامل في المؤسسة السياسية ذات الطابع الأيديولوجي الشمولي- شيوعية، أو فاشية - حيث يقوم الحزب بدور الكنيسة، ويصبح قادته أساقفة الكنيسة الذين يحتكرون وحدهم تفسير النظرية.

وبالنسبة للمسيحية بالذات، فإن عوامل معينة اعتبرت الكنيسة الممثلة الوحيدة والمشروعة للديانة، كما أن ظروف أوروبا في القرون الوسطى جعلت الكنيسة هي السلطة المركزية الوحيدة وسط أرخبيل الدويلات التي كانت تغطي سطح أوروبا. وتقسمها إلى مئات الدويلات يحكم كل دويلة دوق، أو كونت أو لورد إلخ.. وكانت قواعد

الطوائف تفصل ما بين المدن بعضها بعضا، فضلا عن العوامل الجغرافية من جبال أو أنهار قبل ظهور وسائل النقل والاتصال الحديثة الخ.. في هذه الملابسات كانت الكنيسة الكاثوليكية هي القوة الوحيدة ذات السلطة المركزية والرئاسة الوحدة. وكان الأساقفة ورسل البابا هم الذين يجوبون أوروبا ويخترقون حواجزها، فضلا عن أن بعضهم كان يحكم بالفعل دويلات منها وفي الداخل كان الجمهور الأوروبي ينظر إلى الكنيسة باعتبارها «أُمنا الكنيسة» التي يعمد فيها أطفاله ويعقد فيها زيجاته ويدفن فيها أمواته. وكانت الكنيسة هي التي تتولى التقسيم الإداري في المدن والقرى إلى «ابراشيات».

وقد عملت الكنيسة على توحيد أوروبا في مناسبتين. الأولى، عندما توجت شارلمان – في سنة ٨٠٠ – ووكلت إليه توحيد الولايات والمقاطعات الخ. فقام بهذا، والثانية، عندما أرادت أن توقف الحروب داخل أوروبا ما بين الأمراء وأن توجهها إلى الشرق، فأعلن البابا أربان الثاني في عام ١٠٩٥ الحروب الصليبية التي وحدت سيوف أوروبا ووجهتها نحو الإسلام(١).

---

(١) وهو الأمر الذي دعا إليه المفكر الألماني لايبنتز بعد ذلك بخمسة قرون.

وحاول بعض الملوك الأقوياء التخلص من وصاية الكنيسة، فتصدت لهم وأخضعتهم، وقد يصور ذلك ما حدث للامبراطور الجرماني هنري الرابع الذي أعلن البابا جريجوري السابع حرمانه فاضطر سنة ١٠٧٧ لأن يذهب إلى البابا في قرية كانوسا حيث كان هناك، وأن يقف على بابه ثلاثة أيام قبل أن يسمح له بالمثول بين يديه ويظفر بالصفح عنه.

وحفلت المدة من ١٠٧٧ حتى منتصف القرن السادس عشر بالمنازعات حتى استطاع الملك هنري الثامن ملك انجلترا أن يتحرر من وصاية الكنيسة الكاثوليكية وأن ينصب نفسه «حاميا للعقيدة» كما ظهر مارتن لوثر وخلص ألمانيا من وصاية الكاثوليك وفي النهاية انحسم الصراع لمصلحة الملوك والقوميات.

وكان السبب الأكبر في هزيمة الكنيسة أنها قاومت الحريات: حرية العقيدة عن طريق إقامة محاكم التفتيش الرهيبة، وحرية الفكر بتقييد طبع الكتب وتحريم تداول كل الكتابات التي تخالف وجهة نظر كنيسة روما بمقتضى ما يسمونه الجدول (INDEX LIBRORUM PROHIBTORUM) الذي تعود فكرته وقراره الأول إلى مجمع نقيه سنة ٣٢٥ عندما حرم كتاب الأسقف أريوس

المعنون THALIA، ويعود تاريخ ظهوره الفعلي مع تطبيقه على ما سبق إلى مجمع ترينتي سنة ١٥٦٤. وهذا الجدول يصدره البابا ويعاد طبعه كل عام، ويتضمن أسماء الكتب التي تحرم الكنيسة طباعتها وتداولها. ويدخل فيها بالاضافة إلى نصوص التوراة والأناجيل غير المعتمدة لديها كتب كثيرة منها كتب لجاليليو، وهوبز، وديكارت، وجان جاك روسو، وفولتير، ومونتسكيو، وكانت، وجوته، وسبينوزا، وجون ستيوارت ميل، وفكتور هوجو، وفورييه، وماركس، وبرجسون إلخ... وتمسكت الكنيسة بحماقة بفكرة ثبات الأرض وأنها لا تدور، واعتبرتها قضية مقدسة ثلاثًا وانها أهم من أية قضية تتعلق بالعقيدة المسيحية ووقفت الكنيسة دائما في صف النبلاء ضد الجماهير، وكان للأساقفة تمثيل كبير خاص بهم في مجلس اللوردات وقاوموا أولى الانتفاضات الجماهيرية في بريطانيا التي حملت اسم ثورة الفلاحين في القرن الرابع عشر. كما قاومت الكنيسة البروتستنتية وعلى رأسها وقتئذ مارتن لوثر نفسه قومة الفلاحين الألمان التي عرفت باسم ثورة الفلاحين في القرن السادس عشر، ودعا مارتن لوثر النبلاء إلى سحقها بكل قوة.

ويوضح استعراض الوقائع السابقة أن نشاط الكنيسة وليس المسيحية كان العامل الحاسم الذى جعل الحكم ثيولوجيا - أما المسيحية نفسها فهى بعيدة تماما عن محور الصراع وغايته وقولة المسيح «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» معروفة، كما يدل الدليل السلبى على النتيجة نفسها، أعنى أن انتفاء وجود المؤسسة الدينية - أو ابعادها هو الذى سمح بوجود العلمانية فى أوروبا فالكنيسة هى العامل الرئيسى سلبا وايجابا وليس المسيحية التى لاتزال موجودة فى أوروبا ويعتبرونها من الأصول التى قامت عليها الحضارة الأوروبية جنبا إلى جنب التراث الاغريقى والرومانى وكان لابد أن ينشأ صراع ما بين المجتمع الأوروبى الذى يمود بجذوره إلى أثينا وروما والسلطة الكنيسية التى جاءتها من الشرق، وظل المجتمع الأوروبى ممثلا فى مفكريه يصارع الكنيسة وقيمها حتى الثورة الفرنسية ١٧٨٩ التى كانت أولى بوادر انتصار هذا المجتمع على الكنيسة.

وشيئا فشيئا استرد المجتمع الأوروبى من الكنيسة السلطات والصلاحيات التى كانت تمارسها ولم يبقَ لها من دور إلا تعميد

الأطفال أو تزويج الشباب أو دفن الموتى. وعندما قنعت الكنيسة بذلك لم يضن عليها المجتمع الأوروبى الذى استرد «دنيويته» بجزء من الكعكة - فأفسح لها جانبا بين المؤسسات الأخرى، وفى بعض الدول - كألمانيا - تقوم السلطات بخصم نسبة مئوية للعمل الخيرى من الأجور وتحولها للكنيسة. وبهذه الطريقة استعادت الدنيوية التى هى فى أصل حضارتها واحتفظت فى الوقت نفسه بالكنيسة - كما كانت روما تحتفظ بنُصُب للإله المجهول[1]. ولو تصورنا مسيحية بدون كنيسة لكان من المحتمل أن لا يقوم هذا الصراع الطويل الذى استهدف استرجاع الدنيوية لأن المسيحية وإن كانت قيمها تختلف عن قيم الدنيوية الأوروبية فلم يكن منها ضير ما ظلت تقوم بدعوتها «بالحكمة والموعظة الحسنة» وإعطاء ما لقيصر للقيصر... ولكن الكنيسة - وليست المسيحية - هى التى استهدفت السلطة، وهى التى قاومت العلماء والمفكرين وأقامت محاكم التفتيش وفرضت رقابة قاسية على إصدار الكتاب... الخ.

---

(١) كان من المألوف فى بعض المعابد الرومانية ان يقام نُصب يكتب عليه «الاله المجهول» ولعل هذا كان فى أصل فكرة «الجندى المجهول» فيما بعد وما أشبه.

علمانية الإسلام:

إذا خلصنا من اللبس الأول بحيث يكون مرجعنا هو القرآن، وليس المقررات الفقهية، وإذا سلمنا بأن الأحكام التى تصدر على الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن أن تنطبق على الإسلام ببساطة لعدم وجود مثل هذه الكنيسة فإن الجو يتهيأ لمعالجة قضية العلمانية والإسلام.

أول ما يلفت الانتباه أن الإسلام على نقيض الأديان السابقة لم يجعل دليلا على مصداقيته معجزة خارقة للعادة، مخالفة للنواميس، كاحياء الموتى أو عدم الاحتراق بالنار أو تحويل عصا موسى إلى حية تسعى إلخ... ان معجزته هى «كتاب» ووسيلته إلى كسب الإيمان هى تلاوة هذا الكتاب، ورفض القرآن طلب المشركين معجزة «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا

رسولا. الإسراء ٩٠ – ٩٣، فهذه الآيات ليست فحسب تنفى ما طلبوه من معجزات ولكنها أيضا تقرر ببساطة رائعة بشرية الرسول «هل كنت إلا بشرا رسولا».

ويصور القرآن نفسية الناس وقتئذ عن ما يجابهونه من جديد «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون أن تتبعون إلا رجلا مسحورا (الفرقان ٧ – ٨)، ومرة أخرى «لولا أنزل عليه آية من ربه، قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة لقوم يؤمنون (٥٠ – ٥١ العنكبوت)... فانظر كيف عزل القرآن عالم المعجزات عن عالم الدنيا ووكل الأول إلى الله وخص الرسول بأنه «نذير مبين». وكيف جابه المشركين بأن فى الكتاب ما يكفى.

ولا يقل دلالة فى ما نحن بصدده ما أشرنا إليه آنفا من أن الإسلام لا يعترف بالمؤسسة الدينية التى تحتكر التفسير والتأويل والتحريم والتحليل وتكون واسطة بين الفرد والله وتؤدى وظائفها

داخل مبنى له شروط معينة ككنيسة أو معبد ولا تجوز ممارسة الشعائر الدينية فى أى مكان آخر أو على أيدى رجال آخرين..

قضى القرآن على المؤسسة الدينية بوجهيها قلبا وقالبا واعتبر أن قيام الاحبار والرهبان بالتحليل والتحريم والوساطة بين الفرد والله نوع من الشرك... كما لم يربط بين اداء الشعائر بالمبنى المعين الذى تقيمه المؤسسة فالأرض كلها مسجد طهور تجوز الصلاة فيه. ومنظر القروى الذى يصلى على شاطئ النيل أو البدوى الذى يصلى وسط الصحراء من المشاهد المألوفة والمسجد نفسه ليس إلا أرض مسورة يمكن لأى واحد اقامته ويمكن لأى واحد يحفظ القرآن أن يكون اماما فى هذا المسجد.

وقد كان من الأسباب التى أدت إلى انتفاء المؤسسة الدينية فى الإسلام بساطة ونصوع فكرة الألوهية وعدم قيامها على لاهوت يشق على الرجل العادى ادراكه ويحتاج إلى حبر أو قس أو كاهن متخصص..

وهذه الحقيقة كانت من أكبر أسباب «علمانية» الإسلام لأنه أبعد كل المحاولات اللاهوتية التى تستعصى على العقول من مجال

العقيدة.

ان تقرير حرية العقيدة والفكر وانتفاء المؤسسة الدينية وبساطة فكرة الالوهية أبعد الإسلام عن الثيولوجية قدر ما قربها من العلمانية فضلا عن ان التصوير الإسلامي الديناميكي للحياة الذي يقوم على التدافع، القريب من الصراع والجدل ما بين قوى الخير وقوى الشر، هداية الأنبياء وغواية الشياطين يجعل الحرية جزءا لا يتجزأ من كيانه ومكوناته، كما أن اطلاق قوى الغواية الذي يسمح به القرآن للشيطان إلى آخر مدى وحتى يوم القيامة «واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا»، الإسراء: ٦٤ يجعل وجود هذا العنصر – أي الحرية – أمرا مقررا ولابد منه لتمام التصوير القرآني للحياة «ونفس وما سواها. فالهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» الشمس ٧– ١٠.

ولكن علينا أن نعترف ان تطور المجتمعات من مجتمعات بسيطة الطبيعة محدودة العدد إلى مجتمعات «امبراطورية» تتضخم فيها القضايا والاحتياجات يفرض على هذه المجتمعات درجة من

التخصص وعندما بلغ المجتمع الإسلامي هذه الدرجة من تطوره أصبح من الضرورى ظهور فئة تتخصص في المعرفة الدينية الإسلامية، وتعالجها من منطلق هذا التخصص، فظهر علماء دين وليس رجال دين، فقهاء وليس أكليروس، ولكن هذه التفرقة بين علماء الدين في الإسلام ورجال الدين في المسيحية لم تثبت طويلا وأصبح علماء الدين في الإسلام هم كرجال الدين في المسيحية يهدفون دائما إلى احتكار «المهنة الدينية» ويتذرعون بما جاء في سياق طويل مختلف في احدى الآيات «فاسألوا أهل الذكر» وهم لا يرون تفرقة بينهم وبين الأطباء والمهندسين... إلخ. الذين يلجأ إليهم الناس عندما يريدون علاجا أو يقيمون بناء.

ولنتذكر مرة أخرى قصة البشرية مع الأديان وانه ما ان يقوم الدين حتى يظهر الكهنة، والسدنة، تحت أى إسم وفى أى صورة مادام الهدف واحدا هو الاستحواذ على الدين.

ولكن الإنصاف يقتضينا أن نقول إن المؤسسة الدينية في الإسلام لا يمكن أن تقاس بالكنيسة في المسيحية، لأن الأولى انما وجدت بحكم التطور بينما الثانية موجودة بالنص في الكتب

المقدسة، ولهذا، فلم تحكم أبدا المؤسسة الدينية الإسلامية لا بصفة مباشرة أو غير مباشرة كما حدث بالنسبة للكنيسة عندما كانت تحكم بالفعل أو على الأقل هى التى «تعمد» الملوك ملوكا وتقدم لهم التاج، وهو الأمر الذى كان مقررا حتى رفضه نابليون... ولم تُقِم المؤسسة الدينية الإسلامية محاكم دائمة مهمتها الوحيدة محاربة الزنادقة والحكم عليهم. وإن حكم الفقهاء فى عدد من الحالات بانحراف، أو حتى بردة، بعض العلماء... ولكنهم كانوا فى حقيقة الحال يمالئون الحاكم فى هذا، أو يحاولون اكتساب شعبية.

***

فى الوقت نفسه فإننا لم نقل ان القيم الدينية - سواء كانت مسيحية أو اسلامية - تتفق مع القيم العلمانية - الدنيوية - فلا جدال فى أن هناك اختلافا بيِّنًا بين مجتمع لا يفرق أفراده بين المدنس والمقدس ولا يستهدفون إلا مصالحهم ويعملون لتحقيق أقصى درجة من الاستمتاع الطليق، من جانب، وقيم تفرق بين الخير والشر، وتلزم الانسان درجة من الانضباط وتكبح جماح الشهوات والمطالب الذاتية، والنقطة المهمة هى أنه ما ظلت الأديان

تدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، وتترك ما لقيصر لقيصر، فإن دعوتها تكون نافعة جدا لإيجاد نوع من التوازن ولكبح جماح الشهوات الطليقة، والحبل المطلق على غاربه، ويصبح من الممكن ايجاد معايشة «جدلية» بين العلمانية والأديان تقوم على أساس تكامل لا يتحقق إلا بوجود الأمر ونقيضه.

وهنا أيضا نجد نوعا من التفرقة بين الإسلام والمسيحية قد يمثله موقفهما من العلاقات الجنسية، فالمسيحية متأثرة بفكر ومزاج القديس بول المؤسس العملي للمسيحية، عزفت عن هذه العلاقات ولم ترَ فيها إلا شهوة الجسد واللحم والدم، ولكنها لما كانت غريزة مستحكمة، فإن العزوف عنها كان يعني «التحرق» ولهذا تقبل القديس بول «التزوج» وضيقه في أقل الحدود – زوجه واحدة وتحريم الطلاق... الخ.

ولكن الإسلام كان أكثر علمانية، فرأى فيها غريزة أراد الله بها حفظ النوع، وأن صاحبها إذا وضعها موضعها المشروع أثيب عليها – كما أنه إذا انحرف بها عوقب عليها. فالقضية في الإسلام قضية «تنظيم»، ومن هذا المنطلق أباح التعدد في بعض

الحالات، كما جعل عقد الزواج يقوم على إيجاب وقبول ويمكن أن ينتهي إذا فقد ذلك أي عندما يصر الزوج أو الزوجة على الطلاق.

ولعله كان أكثر انسياقا مع الطبيعة البشرية، فقد حرمت المسيحية تعدد الزيجات والطلاق، لكي تجد نفسها أمام تعدد «العلاقات» غير المشروعة التي حلت محل الزيجات المشروعة في المجتمع الإسلامي، ولكي تقر النظم أنواعا متعددة من الطلاق برغم تحريم الكنيسة ذلك.

ويتفق الاسلام مع العلمانية في أنه يرفض الدولة الثيولوجية ويجعل الحكم عقدا سياسياً فكأن الإسلام حقق العقد الاجتماعي الذي تصوره جان جاك روسو.. قبله بقرون طويلة.

ان الاستثناء الوحيد من هذا هو ما ذهب إليه الشيعة الذين رأوا أن الامامة بالنص وأعطوا ائمتهم حصانة وكونوا «مؤسسة دينية» لها مواردها الخاصة تعد هي «المرجعية» وهذا كله يتنافى مع ما ذهب إليه جمهور المسلمين لأنه يمكن أن يؤدي إلى الدولة «الثيولوجية» التي يصعب في وجودها ظهور علمانية وقد ظهر التضاد من وقت بعيد، وكان مما دفع ابن تيمية إلى تأليف كتابه

عن السياسة الشرعية الرد على ابن المطهر الحلى من الشيعة الامامية.

ورَفْضُ جمهور المسلمين وجماعتهم لما ذهب إليه الشيعة هو رفض للدولة الثيولوجية.

على أن الدولة الشيعية نفسها عندما ظهرت في العصر الحديث بانتصار ثورة الامام الخميني تتعرض الآن لتنقيح يخلصها من كثير من رواسبها القديمة وبوائم بينها وبين حياة العصر.

وليس الحكم وحده هو الذي يقوم على التعاقد. إن معظم النشاط الاقتصادي يقوم عليه - بل ان الزواج - رغم خصوصيته - هو في جوهره عقد مدني يقوم على ايجاب وقبول وكل الشروط الأخرى تكميلية. مع استبعاد ان يتم في كنيسة وعلى يد كاهن.

ويعطى الإسلام الدنيا حظها «ولا تنس نصيبك من الدنيا»، «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الايات لقوم يعلمون» [الاعراف ٣٢] وقد يذكر هنا عزوف الإسلام عن الرهبانية والزهد فى طيبات الحياة التى أحلها الله. ولكن

الإسلام لا يقتصر - كالعلمانية على الدنيا وإنما يضم إليها الآخرة ويحاول الجمع بينهما - اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا - وليس ثمة تناقض الا فيما يمكن أن تذهب إليه الإرادة الفردية من شطط - وهذا الشطط اذا كان في السلوك فإن الإسلام أبدع آليات لاصلاحه كالتوبة والاستغفار والمقاصة - أي عمل الحسنات التي تَجُبّ السيئات. واذا كان يمس المجتمع فهناك عقوبات أريد بها الردع، وإذا كانت تدخل في الظلم والاستغلال، فإن الإسلام يقيمها على أساس العدل...

من هذا العرض نرى أن هناك نقاط ائتلاف بين الإسلام والعلمانية خاصة فيما يتعلق بعلمانية الحكم.

ثلاثة جوانب يجب أن توضع في التقدير

هناك، بعد الدراسة الموضوعية لكل من الإسلام والعلمانية ثلاثة جوانب يجب أن توضع في الاعتبار يختص أولاها بمدى نقاء العلمانية الأوروبية، ويختص الثاني بطبيعة هذه البلاد، اعني مصر خاصة والمنطقة العربية عامة، ويختص الثالث بنتائج تطبيق العلمانية في المجتمع الأوربي في العصر الحديث.

أ- مدى نقاء العلمانية الأوروبية

تظهر الدراسة العميقة للمجتمع الأوروبي الحديث ان هذا المجتمع رفض الدين السماوى واصطنع دينا أرضيا، وكفر بالله الذى جاءت به المسيحية والاسلام وأمن بالهه، جاءت بها السينما ونظم الحكم والفنون والرياضة فهو ليس علمانيا خالصا وحقيقيا، ولكنه علمانى بالنسبة للأديان القديمة، اما موقفه أمام القوى الجديدة الصاعدة في سمائه فهو موقف المؤمن بها، العابد لها، ذلك أن الانسان لما لم يكن بطبيعته إلها، ولا خالقا، لنفسه أو لما فى الأرض من أشجار وأنهار ومعادن الخ... وانما هو متصرف فيها مستخلف عليها، فقد كان لابد وان يوجد إلها، بعد أن رفض الاله الذى تقدمه له الأديان يستوى ذلك المجتمع القديم والمجتمع الحديث ففى اليونان أوجد الشعراء وأبدعوا تلك المنظومة من آلهة «الأوليمب» التى دارت حولها الأساطير والآداب وأورثت أوربا الحديثة أسماءها، وفى الرومان أصبح الأباطرة آلهه، وتولى مجلس الشيوخ «تعيين» من يؤله من عظماء الرومان وقبل هذين امتلأت أرض مصر بالآلهة من كل نوع: نيل وشمس، وحيوان الخ... ولم

يكن لهذا كله من داع لولا ان الاحساس بالحاجة إلى إله يكاد يكون فطريا ولعل القرآن قد أشار إلى ذلك بطريقته الرمزية، «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى.....» ١٧٢ الأعراف.

وهكذا فلم يكد المجتمع الغربي العلماني يرفض تدخل الدين في المجتمع حتى فتح الباب على مصراعية لآلهة من صميم هذا المجتمع مثل ملكات الجمال أو نجوم السينما «عندما مات رودلف فالنتينو انتحرت العديد من النساء في أربعة أركان العالم الحديث» وما أكثر ما توجد صور هؤلاء الأبطال والبطلات معلقة في بيوت الشبان والشابات أو حتى في محافظهم، وكذلك أبطال وبطلات الرياضة وكرة القدم والتنس الذين يحتازون الملايين لقاء مبارياتهم التي تشغل شاشات التليفزيون وتسمر الناس أمامهم، ويصبح لهم من الشهرة أكثر مما للعلماء أو الوزراء أو حتى رئيس الدولة، وفي المجتمعات الاشتراكية التي ثارت على هذه الآلهه «البورجوازية» وجد آلهة من نوع جديد، وجد لينين الذى يدفن في مدفن على غرار أهرام المصريين وحنط مثلهم ويقف الأطفال المساكين في زمهرير

الشتاء صفوفا لكي يلقوا نظرة عليه. كما ظفر ستالين، وماوتسي تونج وهوشي منه بمثل هذه المنزلة، وبما أكثر الملايين من الشبان والشابات الصينيين المهوسين بالكتاب الأحمر الذي وضعه ماوتسي تونج وظفر بما لم تظفر به الأناجيل وما أضخم التماثيل التي أقيمت لهؤلاء الحكام الطغاة وتماثل تماثيل رمسيس الثاني وغيره من ملوك الفراعنة. لقد انتقت في هذه المجتمعات «عبادة الله» الذي اعتبر الها رجعيا أوجدته مظالم الرأسمالية وقامت «عبادة الفرد» وهي عبادة لها إكليروسها وكهنتها، وليس هناك فرق بين المكتب السياسي «البوليتبيرو» وكرادلة البابا في روما أو آيات الله العظمى في «قم».

هذه كلها صور لا تختلف عن الإيمان الديني الذي يفترض أن يناقض العلمانية، وقد وجد وازدهر في كل بيئة علمانية رأسمالية أو اشتراكية ولهذه الآلهة جنتها ونارها. والخلاف انهما في الحياة الدنيا وليسا في الآخرة. وقد سعد بهذه الجنة كل الهه العلمانية من نجوم سينما ورياضة، وملكات جمال.. وحكام يهيمنون على المصاير كما شقي بنار هذه الآلهة جماهير العمال الذين عاشوا

في جحيم الاستغلال الرأسمالي قبل أن يتوصلوا إلى تكوين نقاباتهم، كما زجت زبانية الحكام الذين يحملون أسماء الـ «د. ج. ب» والعاصفة والفاشست ولا يقلون عن زبانية الجحيم بالجماهير إلى السجون أو معسكرات للعمل سخره في ظل ظروف وبطريقة أسوأ من سخرة الرومان القدامى.

وهكذا يتضح أن المجتمع الغربي الحديث وان كان قد نبذ المسيحية وراء ظهره، فانه استقبل بوجه آلهة جدد يملكون السعادة والتعاسة، الجنة والنار، وتتقدم اليهم الجماهير بالعبادة، حتى ولو كانوا من ابداع المجتمع نفسه وأخذوا الطابع الدنيوى، وان هذا المجتمع أجلس في حضن العلمانية ديانته الخاصة.

ب - الطبيعة الخاصة للمنطقة العربية

على دعاة العلمانية ان يتعرفوا تماما على الطبيعة الايمانية لمصر وللمنطقة العربية - وآثار ذلك على تقبل واستساغة العلمانية. ففى هذه البلاد ظهر الأنبياء أولو العزم - وقاموا برسالاتهم التي حملها المؤمنون بها إلى بقية شعوب وبلاد العالم. وفي هذه البلاد - وبوجه خاص مصر - ومنذ أن بدأت تاريخها، كان الدين هو أبرز

مقومات المجتمع فيها ، وحوله، أو عنه، انبثق التشريع، والحكم، والاخلاق، والأعراف، والتقاليد ، وهو الذى ترك لنا الكرنك والأهرام والمسلات التى تزدان بها ميادين أوربا وأمريكا . وفى المعهد المسيحى أنجبت الاسكندرية قطبى العقيدة المسيحية أريوس واثناسيوس، وكان الدين هو محور مقاومة مصر القبطية للحكم البيزنطى الذى وإن كان مسيحيا ، فانه اختلف عن نظرية الكنيسة القبطية، وفى المرحلة الاسلامية كسبت مصر - تحت العلم الإسلامى - انتصاراتها على الصليبيين وخلصت بيت المقدس، كما أنقذت الشرق بأسره من الغزو التترى بانتصارها فى معركة عين جالوت.

وفى الحقبة الحديثة - كان شيوخ الأزهر هم قادة المقاومة الشعبية ضد نابليون وكليبر وهم الذين قضوا فعليا سنة ١٨٠٥ على الحكم التركى عندما رفضوا الوالى التركى وقاموا بتوليه محمد على الذى تعهد لهم بالحكم بالشرع والعدل.

وظل الأزهر منبرا للدعوة الوطنية فى ثورة ١٩١٩، ومن على منبره أعلن عبد الناصر استمرار الكفاح غداة مؤامرة ١٩٥٦ . وما

ان تحين أوقات الصلاة حتى يقطع التليفزيون ارساله ويعرض الآذان مشفوعا بحديث نبوى وعندما يحل رمضان تأخذ الحياة شكلا يتفق معه، أما الأعياد فهى أصلا اسلامية (عيد الفطر وعيد الأضحى، ميلاد النبى، السنة الهجرة الخ).. ويحدث هذا فى ظل حكومات ليس لها توجه اسلامى، بل لعلها تعزف عنه، ولكنها اضطرت لانتهاجه تحت ضغط الرأى العام وللابقاء على نفسها واكتساب شعبية.

وقد كان اعلام ورواد النهضة أو – كما يقولون – التنوير – من أبناء الأزهر كالشيخ رفاعه رافع الطهطاوى – كما لم يكن على مبارك، أو حتى عرابى – غريبا عن الأزهر، وقد تيقظ المجتمع المصرى على صيحة جمال الدين وعمله الدائب فى مصر ثمان سنوات، وأعقبه تلميذه الأزهرى الشيخ محمد عبده وقاد حركة تحرير المرأة قاسم أمين وهو تلميذ محمد عبده ومعلوم أن طه حسين وعلى عبد الرازق تعلما فى الأزهر.

ولم يحدث ان عارض أو ندد أحد دعاة حركة التنوير بالإسلام بل انهم كلهم يعلنون أنهم يكنون أعظم التقدير والاحترام للإسلام

وللقرآن وللرسول، لا يشذ عن ذلك أبرز دعاة العلمانية المعاصرين المرحوم فرج فودة، أو نصر أبو زيد، وقد نعجب أن نجد إحسان عبد القدوس صاحب مدرسة روزاليوسف الصحفية- يقول: «انني أعيش كمسلم، إن حياتي الخاصة والعامة تجرى تحت تأثير من وحى الإسلام، فإن أصبت فى تصرفاتي، فلأن الإسلام وفقني ان اصيب، وان أخطأت فلأنني عجزت عن اتباع ما يفرضه الإسلام على» «انظر عدد صباح الخير - ١ رجب سنة ١٤١١ - ٩١/١/١٧ ص ٩ ».

فهذه الحقيقة الجذرية تخالف مخالفة تامة ما هو معهود فى أوربا ليس فحسب من عدم اكتراث بالدين - بل أيضا المهاجمة العنيفة له سواء فى ذلك الشيوعيون الذين رأوه «أفيون الشعوب» أو علماء الاجتماع والتاريخ الذين يشككون حتى فى وجود المسيح نفسه، فضلا عن التاريخ المغلق للكنيسة.

ودلالة هذه الحقيقة، والتضاد بين ما هو قائم فى المجتمع الأوربى، مع ما هو قائم فى المجتمع العربى، لا تخفى، ولا يسع أى مفكر أمين أن يتجاهلها .

ج - آثار تطبيق العلمانية فى المجتمع الغربى:

ان بريق التقدم والثراء والبذخ وشيوع الآداب والفنون وارتفاع مستوى الحياه وشتى مظاهر الجمال تعمى عيون كثير من الباحثين عن رؤية الوجه الآخر للصورة. فهذه المجتمعات كلها بدأت نقطة انطلاقها، وحققت تراكمها بسلب ونهب الشرق تستوى فى ذلك بريطانيا وفرنسا واسبانيا وهولندا وروسيا القيصرية وألمانيا والولايات المتحدة.

ان بريطانيا واسبانيا استأصلتا الهنود الحمر الوديعين المسالمين وابادتهم للاستحواز على أرضهم، وفرغت هذه الدول افريقيا من شبابها عندما اقتنصت طوال قرنين من الزمان مائة مليون افريقى كما تقتنص الحيوانات وزجوا بهم كالحيوانات أيضا فى سفن بنيت خصيصا لتكون سجونا عائمة، وكان نصف هذا العدد يهلك خلال الرحلة أو فى السنة الأولى للاستعباد بينما سخر الباقون فى زراعة التبغ وقصب السكر والقطن وكان الرأسماليون قبل أن يظفروا بثروات الشرق وتسخير أبنائه قد استغلوا النساء والأطفال من شعوبهم فى مصانع الغزل والنسج

ومناجم الفحم والحديد ثلاثة أجيال متوالية قبل أن يستطيع العمال تكوين نقابات تحميهم من هذا الاستغلال.

وقامت الحروب بين الدول الأوربية بعضها بعضا، وضمت حربين عالميين ١٤-١٩ و٣٩- ٤٥ جرت أوربا شعوب العالم اليهما وسالت فيهما الدمار انهارا. وقدر القتلى فيهما بأربعين مليونا فضلا عما حدث من خراب ودمار.

وفى الفترة المعاصرة تفشت فى المجتمعات الغربية الأزمات الاجتماعية وأخذت شكلا وبائيا مثل الجريمة المنظمة التى تمد افاقها لمجالات جديدة لم تكن مألوفة كدعارة الأطفال والشذوذ الجنسى وإشاعة المخدرات، ومثل الفساد السياسى، الاقتصادى ومثل سيطرة أجهزة الاعلام وتأثيرها القاتل على الشباب وهيمنة الشركات الكبرى الدولية – عابرة القارات على الاقتصاد فى بلادها، وخارج بلادها، والسلطات فى الغرب تقف عاجزة أمام هذا الجموح والانحراف لأنه يستظل بمظلة الحرية، ولأن السلطات أصبحت هى نفسها أسيرة لهذه القوى التى استخدمت الرشوة والضغوط للتأثير على القادة واجهزة الاعلام للتأثير على الجمهور.

وقد تصور بعض المفكرين العرب المتأثرين بالحضارة الأوربية ان العلمانية تجمع والأديان تفرق، وان العلمانية تسامح والأديان تعصب، وهذا خطأ فادح. فالعلمانية أدعى للتفرق من الاديان لأنها تلقى الحبل على غاربه لكل فرد أو مجموعة لتقيم كيانا لها وفي أمريكا يمكن لأى دجال أو معتوه أن يجد انصارا واتباعا حتى عندما تكون دعوته القتل والانتحار فالتعددية تصل إلى أقصى مدى لها في مجتمع العلمانية بينما ان الأديان حتى لو كانت تفرق فانها محدودة فلا يوجد فى العالم كله سوى خمسة أديان.

وبالنسبة للدين فان ما يحدث هو أن تكون الأغلبية الساحقة فى بلد ما من دين واحد، فلا يكون هناك تفرقة، لأن من المسلم به فى النظم الديمقراطية أن يكون القرار فى النهاية للأغلبية وعلى الأقلية الانصياع له، وقد وقف الاسلام فى وجه جموح الأغلبية وأن تحيف على حقوق الأقلية بحماية حرية العقيدة، وما يتبعها من نظم فى الزواج والطلاق والمواريث الخ... وحرم على الأغلبية أن تمسها. فأصبحت هذه الأقليات محمية بالقرآن وهذا ما يطلق عليه فى الفقه الإسلامى.. «**أهل الذمة**» وهو تعبير تضيق به بعض

الأقليات لأنها تشم منه رائحة تفرقة وتتنسم منه نسمة تمييز فى حين أنه فى حقيقة الحال حماية لهم واعتراف بالحقيقة الواقعة التى يريدون - وهيهات - ان يهربوا منها وهى أنهم أقلية. فلو خلصوا من أن يكونوا أهل الزمة يحميهم القرآن الذى لا يستطيع المسلمون مخالفته - إلى العلمانية وحكم الأغلبية الجائرة لكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ولوقع عليهم ما يقع على الأقليات الإسلامية فى الدول الأوربية التى تدعى العلمانية ولكنها تحكم بالشريعة المسيحية فى قضايا الزواج والطلاق والميراث وتفرض هذا الحكم قسراً على الأقليات الإسلامية مع مخالفته لعقيدة هذه الأقليات.

فإذا كان فى استلهام الأديان تفرقة بين البشر فستكون تفرقة للعالم كله ما بين خمسة أديان، وبالنسبة للإسلام فانه يقرر ويؤكد أن علاقة المسلمين بغيرهم علاقة مودة ومسالمة، وهو يعترف بكل الرسل ولا يفرق بين أحد منهم.

أما تهمة التعصب والصاقها بالأديان، فإن الإسلام أخر ما يمكن أن يمكن أن تلصق به. والتعصب الحقيقى والعميق هو

التعصب العنصري وهو أمر اتصف به المجتمع الأوربي من أيام اليونان والرومان حتى أيام الاستعمار وحتى الفترة المعاصرة وأخر صورة له هو تعصب الصرب ازاء المسلمين في سيراييفو فهذا التعصب سواء كان مصدره الكنيسة أو العرف هو ما نجده في أوربا، وهو سر سكوتها عليه رغم ما اتصف به من وحشية.

***

لقد كان ما تعرضت له الحضارة الأوربية الحديثة من أزمات وما وصلت اليه فيها عوامل التدهور قمينا بان يعصف بأي حضارة أخرى، وما انقذ الحضارة الأوربية من مصير الحضارة الرومانية المندثرة – هو أن الحرية والعلم قاوما عوامل التحلل والانهيار ومكناها من البقاء والصمود ولكن هذا تم بثمن باهظ قد لا تستطيع دفعه دائما. وهو ما يوضح حاجتها الماسة إلى القيم الدينية التي تعصمها من التدهور والسقوط، ولا يمكن أن تحل محلها قيم أخرى، لأن للقيم الدينية وحدها من المنزلة ومن الصفة الموضوعية والقداسة ما يعطيها قوة ليست لغيرها.

خاتمة

وفى النهاية نجد أنفسنا أمام مفارقة: ففى أوربا، حيث المسيحية التى تضاد قيمها القيم العلمانية، حدث نوع من المعايشة الجدلية بين العلمانية التى تسود المجتمع، والكنيسة التى تحاول جاهدة أن تكبح الجماح، ولكن دون أن تحقق هذا تماما لأن قانون الحركة والانطلاق أغلب وأقوى من قانون التوقف والتريث ولم يكن أمام الكنيسة إلا أن ترضى بقدرها، وتقبلت الكنيسة ذلك لأنها خلال الألف عام التى قضتها على التربة الأوربية وبالذات «روما» تشربت القيم الأوربية شيئا فشيئا حتى انتهى بها الأمر ان تحمل اسم «الرومانية» وان تتخذ من روما مقرا لها، كما لو كانت وريثة الحضارة الرومانية.

وفى المجتمع الإسلامى الذى تتقارب فيه القيم الإسلامية من العلمانية حتى وإن تعارضت فى بعض الأصول يحدث شد وجذب وصراع وتقاتل، نتيجة لأن كل فريق يريد أن يستحوذ على الصدارة، ولا يؤمن بمعايشة جدلية تكاملية «لنا الصدر دون العالمين أو القبر». ولا يمكن للعالم الإسلامى أن يعيش هذا الحاضر

الشكس طويلا، ولا هو يملك عدة قرون من الصـــراع بين الدين والعلمانيـة كـالتي حـدثت في أوربا طوال القـرون الوسطى، وما نتوقعه بحكم دروس التاريخ ان تنتهي هذه المماحكة بظهور صورة شرقية من العلمانية تحتفظ بالقيم الإسلامية ويستلهمها المجتمع بنسبة تفوق كثيرا استلهام المجتمع الأوربي للقيم المسيحية، وبهذا يحدث نوع من التوازن ما بين عناصر المحافظة والثبات وقوى التقدم والتطور.

ويفـتـرض أن يرضى الذين يمثلون «الدعـوة الإسلامية» بهذه القسمـة، وليست هي بالقسمـة الضيزى، وان يصرفوا النظر تماما عن إعادة عقارب الساعة أو احياء الماضي كما كان... فليس هذا ممكنا... وقد لا يكون مطلوبا.

ان المعضلة التي تواجه الفكر الحديث هي كيف يمكن احياء القيم الدينية سواء كانت اسلامية أو مسيحية – وتعميقها في النفوس بحيث تكون كابحة

للشذوذ والسرف والانحراف حائلة على الخير والقصد والاستقامة دون ايجاد «آلية» تقوم بذلك؟ لأننا لو أوجدنا هذه الآلية لأصبحت هى «الكنيسة» أو المؤسسة الدينية، ولظهر رجال الدين المسيحى وعلماء الدين الإسلامى ولاحتكروا الدعوات الدينية — أو على أقل تقدير فرضوا وصاية عليها وهو أمر مرفوض تماما.

ان التعقيد والصعوبة التى تكتنف التوصل إلى الحل يجب أن لا تحــول دون بذل كل الجــهــود في ســبــيل ذلك فليس الحل بالمستحيل، في حين أن وجوده أمر لا مناص منه لأنه هو الذى سيجعل من قضية العلمانية قضية حضارية وليست مؤسساتية تنبثق عن المجتمع، وليس عن الدولة. ويفسح المجال لوجود علمانية إسلامية فيها تحرر العلمانية وعقلانيتها مع الاحتفاظ برأس ومحور العقيدة — الإيمان بالله وما يشمعه ذلك من إيمان بالرسل والقيم الحضارية الإسلامية.

ملحق عن

مؤسسة فوزية وجمال البنا

للثقافة والاعلام الإسلامى

– أنشأ الشقيقان فوزية وجمال البنا مؤسسة تحمل هذا الاسم للثقافة والاعلام الإسلامى عام ١٩٩٧ م.

– السيدة فوزية البنا ولدت سنة ١٩٢٣ م وعملت بتعليم البنات بالسعودية لمدة ثلاثين عاما حتى أحيلت على التقاعد، وهى حرم الدكتور عبد الكريم منصور المحامى الذى توفى سنة ١٩٨٩م.

– الأستاذ جمال البنا ولد سنة ١٩٢٠م وعمل سحابة عمره بالقضايا العامة ففى سنة ١٩٥٣م أسس «الجمعية المصرية لرعاية المسجونين وأسرهم» وفى سنة ١٩٨١م أسس «الاتحاد الإسلامى الدولى للعمل»، وهو خبير عمالى دولى تعاون مع منظمة العمل الدولية، ومنظمة العمل العربية وحاضر بالمعاهد العمالية المتخصصة وبالجامعة العمالية من ١٩٦٣م إلى ١٩٩٣م. كما شُغل بقضية تجديد الفكر الإسلامى طوال الثلاثين عاما الأخيرة وأصدر عددا كبيرا من الكتب فى المجال العمالى وفى

مجال الفكر الإسلامي حتى جاوزت المائة ما بين مؤلف ومترجم والأستاذ جمال البنا أرمل من سنة ١٩٨٩م.

والشقيقان فوزية وجمال البنا هما ابنا العالم المحدث الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا صاحب «الفتح الرباني في ترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيباني» في ٢٤ مجلد، وشقيقا الامام الشهيد حسن البنا المرشد الأول للاخوان المسلمين.

– تعمل مؤسسة فوزية وجمال البنا لاشاعة الثقافة بصفة عامة والثقافة الإسلامية بوجه خاص بنشر الكتب، وتكوين مكتبات، ووضع برامج دراسة بالمراسلة كما تعنى المؤسسة بتفنيد ما ينسب إلى الإسلام من دعايات مغرضة ومما يلصق به من اتهامات خاصة في العالم الخارجي.

– بالمؤسسة مكتبة بها قرابة ثلاثين ألف كتاب تضم:

(أ) مكتبة الشيخ أحمد عبد الرحمن مصنف مسند الامام أحمد بن حنبل وشارحه وفيها كتب نادرة وطبعات أصلية طبعت في الهند وبطرسبرج وغيرها في الحديث والفقه والتفسير.

(ب) مكتبة الأستاذ عبد الرحمن البنا رائد المسرح الإسلامي وتضم

مجموعة من الكتب الأدبية والمجلات تعود إلى العشرينات فما بعدها.

(جـ) مكتبة الأستاذ جمال البنا ومعظمها عن الحركات النقابية والعمالية والفكر السياسى ونصفها بالانجليزية بالاضافة إلى مجموعة نادرة من الصحف خاصة صحف الاخوان المسلمين القديمة و«الأصول» الخطية لكتب عديدة وخطابات من الامام الشهيد حسن البنا الخ.. والمكتبة مفتوحة، وبها قاعة لإطلاع الباحثين المعنيين.

- تُمَوَّل المؤسسة عن طريق وديعة قيمتها ٢٥٠,٠٠٠ جنيها مصريا تبرعت بها السيدة فوزية للانفاق من عائدها. كما تبرع الأستاذ جمال بشقته الخاصة ومكتبة تضم قرابة عشرين ألف كتاب فضلا عن عشرين ألف نسخة من مؤلفاته.

- يتولى الإدارة والتوجيه الفكرى الأستاذ جمال البنا.

- المؤسسة نوع من الوقف، ولكنها سجلت كشركة طبقا للقانون التجارى **وهى لا تتدخل مطلقا فى نشاطات سياسية ولا تقبل تبرعات أو معونات.**

- تؤمن المؤسسة ان الأزمة الحقيقية للمجتمع المصرى، والعربى،

هي أزمة حضارية بالدرجة الأولى، وان أكبر مظهر لها هو الفهم المتخلف للاسلام ولهذا تدعو المؤسسة لفهم للاسلام بلورته في «إيماننا» وترى المؤسسة ان اشاعة هذا الفهم هو أول خطوة على طريق حل الأزمة الحضارية.

وسيعقب ورقة «إيماننا» أوراق متوالية عن كل بند من بنود «إيماننا» مثل «حرية الفكر» و«قضية المرأة» و«العدل والعمل» و«حقوق الإنسان» و«التقارب بين الإسلام والمسيحية» إلخ...

- لا يريد المؤسسان لنفسيهما شيئا من حطام الدنيا، ولا يسعيان إلى شهرة أو منصب أو جاه، وقد جاوز كل منهما السبعين من العمر وحققا لنفسيهما التأمين المالي وليس لأى منهما أبناء يورثونهم ما يتركان، وقد أقاما هذه المؤسسة ووهباها كل ما لهما وأرادا لها البقاء بعدهما لتنقل إلى الجيل ثمرات خمسين عاما متصلة من فكر اتسم بالعمق والشمول وبذلك تعين الأجيال المصرية، والمسلمة على اجتياز أزمة الضياع والتمزق والضلال والاهتداء إلى الصراط المستقيم.

ومن المسلم به أن تجديد الفكر الإسلامي قضية صعبة تتطلب تضافر الجهود وتعدد البحوث، ولكن يُحْسَبُ للأستاذ جمال البنا

أنه أصدر قرابة خمسين كتابا عن الفكر الإسلامى من العقيدة حتى العمل والعمال مثل «الأصلان العظيمان الكتاب والسنة» و«العودة إلى القرآن» و«الإسلام والعقلانية» و«البرنامج الإسلامى» و«الإسلام والحركة النقابية» و«كلا ثم كلا.. كلا لفقهاء التقليد وكلا لأدعياء التنوير» وأخيرا «نحو فقه جديد»، فى ثلاثة أجزاء.

والمؤسسة ترحب بأى إضافة يرى البعض أنها قد فاتتها وهى على استعداد لتقبلها إذا كان فيها ما يبرر ذلك كما أنها ترحب بطلب المزيد من المعرفة عنها أو المشاركة فيها.

مؤسسة فوزية وجمال البنا

للثقافة والاعلام الإسلامى

١٩٥ شارع الجيش ١١٢٧١ - القاهرة

تليفون وفاكس ٥٩٣٦٤٩٤

ترشيح للقراءة

من مؤلفات الأستاذ جمال البنا

تطلب هذه الكتب من المكتبات الإسلامية ومن دار الفكر الإسلامي – ١٩٥ شارع الجيش بريد الظاهر فاكس وتليفون ٥٩٣٦٤٩١

هذه الرسالة

ترددت كلمة «العلمانية» على الأفواه وتضاربت الأقوال حول موقف الإسلام منها . وهذه الرسالة تجيب على ذلك، وقد انتهت بعد استعراض تاريخ ظهور الدولة الدينية في القرون الوسطى إلى أن الفيصل ما بين الدولة الدينية والدولة العلمانية ليس هو الدين نفسه سواء كان مسيحية أو إسلام – ولكن المؤسسة الدينية الحريصة على السلطة، ولما كانت مثل هذه المؤسسة منتفية من الإسلام فإن هذا يجعل المقابلة ما بين الإسلام، والعلمانية حضارية وليست مؤسساتية تنبثق من المجتمع وليس من الدولة. ويفسح المجال لوجود علمانية إسلامية فيها تحرر وعقلانية العلمانية وتحتفظ في الوقت نفسه بالقيم الإسلامية.

وتعتقد المؤسسة أن الأفكار التي تقدمها هي أمثل الأفكار، ولكنها لا تدعي العصمة أو الكمال، وهي تتقبل أي نقد أو اقتراح بحذف أو إضافة كما ترحب بكل من يحب التعرف بها، والتعاون معها.

مؤسسة فوزية وجمال البنا

للثقافة والاعلام الإسلامي

١٩٥ شارع الجيش القاهرة

ت – وفاكس ٥٩٣٦٤٩٤

الثمن ٥٠ قرشا